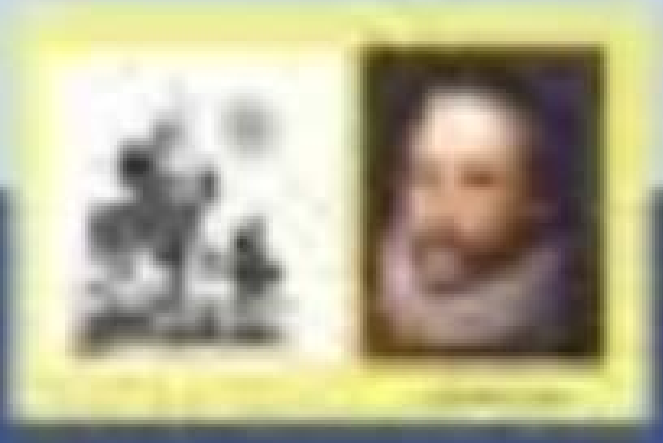

أكتب بالجسد

عبد الكريم غلاب

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

حينما همت بالقلم، كأداة خطاب، كنت مندفعة بما كان يتحدث به أستاذ الأدب المعاصر في الكلية :

– دراسة الأدب والنقد ليس علما تجريديا، ولا هو تعريف بما كتب الآخرون من إبداع : قصائد وقصص وروايات، ولكنه، أساسا، تنمية المواهب، وتفجير الذات لإبداع ما لم يبدعه السابقون...

كنت وأنا طالبة أقرأ كل ما يدرسه معنا الأستاذ، أو يشير إليه، – ولو بكلمات نقدية لاذعة – فلا أجدني أتلقى آراء مخطئة – هكذا كان يخيل إليّ أحيانا، والأستاذ، يملي علينا آراءه – التي لا تكاد تخلو من تجريح وهوى غير بريء عن الكتاب والشعراء المحدثين. لا أحد منهم كان حدثيا ينتج في عصره. هذه هي الصورة العامة التي كانت تنتهي إليها دراسات الأستاذ وإملاءاته.

أكدت لنفسي أنه غير مقنع. لذلك كان عليّ أن أكتشف الحداثة، فيما كتبه ويكتبه، المحدثون من المبدعين. كنت أقرأ وأقرأ، وأسجل ملاحظاتي لأكتشف حقيقة ما أقرأ، ولآخذ الرأي من المنبع لا من نظريات وآراء اعتبرتها متحيزة، والأستاذ يمليها في استعلاء، يوحي به منصبه كأستاذ الأدب الحديث.

– ولم لا أعدّ نفسي لأكون أستاذة الأدب الحديث... ؟

هكذا تساءلت في لحظة طموح. ابتسمت لغرور كان يركبني، وأنا بعد طالبة أدرج في شوق إلى إجازة.

– بعض الأساتذة يحتكرون الموقع حتى التقاعد أو الموت.

أفضى إلينا بهذه التهمة الحاقدة – اعتبرتها حاقدة – محمود راغب، وهو يوزع انتقاداته، في سخرية لاذعة مثيرة للابتسام والضحك، على أساتذة الكلية، لا يستثني العميد.

تراجع طموحي – أو هو غرور خادع – عن أن أصبح أستاذة الأدب الحديث، لأكون كاتبة، أنحو نحو كاتب متميز ممن لم يصنفهم الأستاذ مع الضالين طريقهم إلى الحداثة. قرأت له كل ما كتب. اتخذت من رواياته وقصصه نبراسا أسير به في طريقي حاولت أن أشقه، وأسير فيه حتى التفوق.

– لم لا أتفوق ؟

تساءل طموحي، وأنا أكتب أولى كلمة في أولى قصة عنوانها : "مسيرة نحو الشهرة".

– طموحي بحر صادق...

قلت لنفسي، فقد ولدت متحدية – قالت أمي بلغتها الفطرية – وسلكت طريق التحدي في المنزل وأنا ألعب مع لداتي، في المدرسة، وأنا أتعلم الحروف والكلمات، ثم أتلو في كتب القراءة قصة أو نبذة من قصة لهذا الكاتب أو ذاك من المحدثين، ويحدثنا الأستاذ عن الكاتب، ويلخص لنا مضمون القصة فيثير مخيلتي. لم تكن لي جدة تحكي لي حكايات الإنس والجان والغول وسيف بن ذي يزن. كان الأستاذ، وهو يلخص القصص، بارعا في إثارة الخيال. سألته مرة :

– لماذا أحبّها، ولم يحب تلك التي أحبته ؟

استغرب من فضولي المبكر، اعتبره تحديا لمقامه. أحس الآن أن وجهه احمر خجلا. لا أدري أمِن فضول طفلة في صيغة الصبا، وجرأتها على النطق بالكلمة "الحشومة" أم لأنه لم يكن يستطيع أن ينوب عن الكاتب الذي تخيلها تحب البطل، وهو يحب غيرها ؟.

وحدثت نفسي :

سأكتب قصة – حينما يقترب سني من سن الكاتب، وأجعل البطل يحبّ تلك التي أحبّته...لم أكن مغفلة أو غرة للدرجة التي كان الأستاذ – كان معلما – يحسبني. صديقات أمي كن يملأن الفراغ عند زيارتها بأحاديث يتكرر فيها حب الفتيات للشبان، وحب الشبان للفتيات...

لم أكن أفهم عمق مضمون الكلمة. كنت أدرك، من نطق الكلمة بهمس مريب، أنها تعني علاقة ما بين هذا وتلك. تساءلت مرة في طفولتي :

– لم : هي وهو... ؟

من إصرار الصديقات المتحدثات على استعمال ضميرين غير متماثلين أدركت أن العلاقة تتعلق بهي وهو...

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

– هل أصبح يوما هي ... ويكون أحدهم هو ؟

استعرض خيالي عديدا من هو : كل أبناء عمي، كل أبناء عماتي، كل أبناء خالاتي... غير أني كنت طفلة غرة. طفولتي الغرة المشبعة بالكلمات الهامسة هي التي أنطقتني وأنا أسأل الأستاذ :

– لماذا أحبها ولم يحب تلك التي أحبته... ؟

سؤال ظل بغير جواب. رسب في الذاكرة الطفلية، حتى أطل علي وأنا أكتب قصتي الثانية.

القصة التي مزقتني ودموع الألم تترقرق في عيني.

– لن تكون كاتبة بعد اليوم. الشعور بالخيبة يجعلك تمزقين كل إبداعاتك...

مسحت دموعي. أعرف أن المرأة تبكي، أو تدر عيناها دموعا، ولو كان المشهد مضحكاً. فكرت، ومزقت القصة بين يدي كأني أشهد حطام قصر – قصر من رمال – بنيته، ثم، ثم دسته بقدمي – كما كنت أفعل على الشاطئ في طفولتي قبل أن تجرفه الموجة العارمة...

– لا ... لا يجب أن تعيش، فليست في مستوى ما يكتبه الكاتب الذي تعيش إبداعاته في أحاسيسي الفنية، ذاك الذي نجا من لطمات أستاذ الأدب الحديث.

القصة الثالثة أبقيت عليها. صادف ميلادها حصولي على الإجازة من الكلية.

– أصبحت أستاذة منذ اليوم – هكذا تحدث إلي التحدي الطموح – كل الخريجين أساتذة، ولو كانوا يحاصرون أبواب مجلس النواب كعاطلين يحتجون في يأس...

– أتحدى... لا لن أتظاهر مع العاطلين أمام أبواب مجلس النواب. لا علم لهم بالاحتجاج، لا معرفة لهم بالمحتجين. لا يحضرون. والذين يحضرون يدخلون ويخرجون من الباب الخلفي في سياراتهم الفارهة. لا يوجعون قلوبهم بالذي لا تراه عيونهم.

– أديبة أنا.. ؟ متخرجة من كلية الآداب... أشق طريقي إلى الكتابة ولدت متحدية – قالت أمي – حصلت على الشهادة الثانوية بتفوق حققته بالتحدي... رافقني، وأنا "أناضل" لأحصل على الإجازة بتفوق. لن أدفن زميل حياتي – هذا التحدي – وأنا أقف على باب الوزارة أطلب تعييني أستاذة أو مدرسة في إحدى مدارس المدينة أو القرية، أو متظاهرة بباب المجلس مع المتظاهرين العاطلين.

– مدرسة الفنون الجميلة، لها صلة قربى بفنون القول الجميلة، التي عاشرتها في الكلية ترحب بك لو طرقت بابها.

هو شيطان التحدي يغازلني.

– لم لا... ؟ ما أزال "أتمتع بحيوية شبابي. لن أحيل نفسي على الاستيداع مدرِّسة في مدرسة أو في مكتب إدارة" أجيب على مكالمات الهاتف، أو متظاهرة مع المتظاهرين والمتظاهرات على أبواب

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

المجلس أو الوزارة. أو ... زوجة للفراش مع شاب يطمع في مرتبي. سأكون. لست بعد على استعداد لان أكون. أعيش الآن بقلب فارغ من الحب.

عالم جديد لم أتعرف عليه في الكلية : أدهشني ؟ جعلني أفتح عيني على حياة... الكلية ؟ تضاءلت في رؤياي أمام باقة الفنون التي تقدمها المدرسة : الرسم بالفرشاة والألوان. والنقش بالإزميل. الموسيقى بالوتر وملامس البيان... الغناء بالصوت... الجميل ؟ صوتي ليس خشنا، لعلي أكتشف أنه جميل، قد يجعل منه الأستاذ جميلا. والرقص. الرقص ؟ طبعا من الفنون الجميلة. ولو أتقنته الكثيرات دون أن تسمع باسم مدرسة الفنون الجميلة. الرقص فن جميل – قالت الأستاذة – يتحدى الصوت والريشة والإزميل والوتر. الجسد يعبر بإيقاعات لا تستطيعها الآلة الناطقة، ولا الريشة المتحركة بأصابع، جزء من الجسم، يتحرك بإرادة الفن، يعطي من كل ردهاته نغمة، توحي بإحساس، قد يبلغ حد الشبق... غير أنه ينتزع الابتسامة من الوجه الحزين، يفجر الاشتهاء في الإحساس المتبلد. يربط الاتصال الروحي، وليس الرغبة فحسب – بين عقل جامد وذات متوثبة. الرقص، يا بناتي – أضافت الأستاذة – رسالة حياة أكثر منها إيقاعات جسدية. قلم يكتب رواية مأساة فيعبر أصدق مما يعبر قلم حبر جاف. يحكي أروع حكاية ناطقا بالجسد لا بالصوت. شاهدت روعة الراقصين والراقصات على الجليد في المسابقات العالمية... تتبعت الرقص الثنائي في الحفلات الموسيقية الكبرى... تتبعت الرقص الفردي يوقعه شاب، شابة بقدمين معبرتين طافحتين بالرقة والحيوية وحسن الأداء. الرقص عطاء فني لا يحرك الغريزة – إلا في الذين يعيشون بالغريزة – يكتب بالجسد قطعة شعر جميل يحيي الإحساس الفني في الذين يتذوقون الشعر بفن غير القول.

– وحتى الرقص الشرقي ...؟

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

التحدي في جهر بالتساؤل، لا رغبة في المعرفة فحسب، ولكن للإثارة. أعرف الكثير ممن يصنفون الرقص الشرقي كعملية إغراء بلغة الجسد. على مشهد من الحاضرين من ملايين المشاهدين في كل مكان.

– يا بنيتي – أجابت الأستاذة – الشرق والغرب سواء. جسد الشرقية ليس أكثر إغراء من جسد الغربية. أسلوب أداء. التي تعبر بقدميها قد تعبر بصدرها (فكرت طويلا في الكلمة) الأداء الفني بالرقص كالأداء الفني بالكلمة. عطاء لا يجرح مشاعر ولا أحاسيس إلا عند المراهقين عديمي التربية. قلت الأداء الفني. أعني ما أقول. قد يكون أداء إغراء. ليس فنا ذاك. وهو شرقي أو غربي سواء. والأداء الفني خطاب للمتلقي. بعضهم يرى في رقصة "ڤالس" ثنائية الأداء بعدا فاجرا، إذا تأوهت الراقصة بين يدي الراقص.

فكرت والأستاذة تواصل حديثا شدني إليه بعمق :

– قرأت للكاتب الذي جعلته نبراسي قصة حب جارف انتهت بما تنتهي به أية علاقة يفلت فيها

زمام الرجل، زمام المرأة من عقالهما. روعة الأداء. روعة استنباط الأحاسيس في لحظة عامرة بما هو أسمى من الحب، منحت القصة سموا فنيا تمنيت معه أن لو خرجت من عالم مجرد قارئة لأؤدي دور البطلة...

– ليس للفن حدود ... ؟

واجهت الأستاذة برأي فيه من التحدي بقدر ما فيه من حب المعرفة.

– لا.. ونعم... الحرية رحاب كل إبداع. الحدود قيود تفقد الإبداع مصداقيته، والفن مع ذلك يسبح في عالم المعرفة بالمبادئ وأسلوب الأداء. تلك حدود لا تقمع الفنان، وإنما تفتح له أفقا للتحرر، وإبراز العبقرية التي قد تكون خجلة لا تتفجر إلا في فضاء الحرية.

كنت في المدرسة كالنحلة أقبس من كل شجرة، زهرة، وردة رحيقها. أتوقف عند الرقص. أحاول أن أفجر ما سمته الأستاذة بالعبقرية. كنت أفكر – وأنا أمارس تمريناتي – في أمي، في خالاتي... لإحداهن لسان بتار. يبحث عن مكامن الضعف في أية فتاة، ولو غريبة عن وسطها لتجعل منها حديث المجالس.

كان معي رفيق هو التحدي.

وكان الرقص تخصصي في المدرسة. راودني شعور براحة النفس وراحة الضمير وأنا أدرس تاريخ الرقص في الحضارات القديمة والحديثة. أعجبت بما درست من أصول الرقص عند الشعوب البدائية في إفريقيا وآسيا. تذكرت أني شاهدت زعيما إفريقيا هو نيلسون مانديلا يرقص مع الجماهير الراقصة، وهو يلقي فيها خطابا وطنيا حماسيا. توقف ليؤدي مع الجماهير لحظة رقص. ثم استأنف حديثه في السياسة والحرية والقضاء على العنصرية. شجعتني الأستاذة، وأنا أمارس فنا نوعيا من فنون الرقص لا تتركني أتعداه حتى أتقنه. مدير المدرسة حضر مرة حصة تمرين في الرقص الكلاسيكي.

– عيشي بحركاتك مع الموسيقى. لا تدعي النغم يفلت من إحساسك، حتى لا تكون حركاتك بدون نغم. خجلت الأستاذة. كانت ملاحظة المدير من بدائيات الدروس الأولى. أدركت أن الرقص فن مزدوج. عبأت سمعي وتفكيري وإحساسي حتى تصاحب خطواتي وحركاتي فلا ينطلق جسمي في حرية سائبة.

بدأت غرفتي في المنزل تأخذ شكلا آخر. آلات وشرائط موسيقية. مجموعة كتب في الأدب الحديث، القصة والرواية. لم أكن أميل إلى الشعر كثيرا. أقرأ... أكتب.

– أنت بنت كلية الآداب.

قال ضميري وأنا أحمل القلم لأكتب قصة... مشروع رواية... بعثت بإحدى قصصي إلى مجلة الأدب الحديث... فرحت كطفلة حينما قرأتها منشورة في مكان بارز موقعة باسمي. شجعني

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

نشرها على كتابة أخرى وأخرى... أستمر في مشروع الرواية. حاولت أن أغني. لم يرقني صوتي بدرجة مريحة. أتذكر دائما الحركات اللاإرادية التي تطبع وجه أستاذة الغناء، وأنا أجرب حظي معها.

– لابد أن يستقيم صوتك فيؤدي. ليس من الضروري أن يكون جميلا كصوت أم كلثوم أو اسمهان، ولكن من الضروري أن يؤدي اللحن.

نطق شيطان التحدي الذي يسكنني. سمعت مرة صوتا أجش لأمريكي أسود يؤدي لحنا رائعا استبد بتصفيقات الجماهير. صوتي ليس أجش. سيؤدي...

أنهيت كتابة "فتاة متمردة"، كانت الرواية الثانية. الأولى تركتها على الرف لتشهد التجربة الأولى التي لم يرض عنها التحدي. كاتبت دور النشر في بلادي.. في بلاد أخرى.. – لم أتلق جوابا قابلا أو رافضا – طلبت مقابلة مدير دار النشر. حدد لي موعدا... حملت معي أعداد مجلة الأدب الحديث التي اختصت بقصصي. قابلني ببرود، كان يتطلع إلى شخصي، أكثر مما يهتم بما بين يديه من مخطوط الرواية.

– دارنا يا آنسة نشرت لكتاب كبار. منذ بدايتهم الأولى. حملت كفه نسخة من رواية لكاتب له اسم أخذ يحرك كفه كأنه يزن ركام الورق. أفهمني أن روايتي ليس لها نفس الوزن الورقي. تطلعت إلى وجهه بنظرة آسية.

– تزن فنّ القول بميزان البصل والبطاطا.قال شيطان التحدي. أجهضت كلماته وأنا أقف مودعة، و"فتاة متمردة" بين يدي.. في المنزل وضعتها مع سابقتها على الرف لتشهدا خذلان الأدب.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أقفل باب غرفتي كلما هممت بمواصلة تمارين الرقص وسماع الموسيقى. أعرف أن أمي تتضايق من حركاتي، تشعر بالخجل فلا تتحدث إلى أخواتها بما أتعلم في مدرسة الفنون الجميلة. خالتي، تلك التي تنعم بلسان ذرب في أعراض الفتيات، كنت حذرة من أن تضبطني مرة أغني أو أرقص.

– اكتبي... اكتبي... إرادتك أقوى من أن تصاب بنكسة...

هتف بي التحدي في لحظة تفكير...

يجتذبني القلم من الإيقاع. يجتذبني الإيقاع من القلم. أكنت أرقص. أغني. عابرة مررت أمام مرآة. توقفت قدماي على غير وعي. لأول مرة – كأني – أتطلع إلى وجهي. انحدرت عيناي ببطء انبهرتا من عنف سامق ما يزال ينبض بحيوية. أسلمهما إلى صدر ناهد في غير تسيب. ذراعان مرسلتان في غير هزال. قد أنثوي أهيف ممشوق في غير ترهل. أسلمني فضول الرؤية المتنازلة إلى فخذين مكتنزين وقدمين دقيقتين طفوليتين.

توقفت طويلا أمامها مواجهة مدبرة مجانبة تحدثت إلي بالكثير، ناطقة حية مغرية بالود

والصداقة. أبعدتني عن صمت الجدار وبلادته. همست في أذني :

– أنت في طريقك إلى الاكتمال. الرقص أنثوي. طلاب قسم الرقص في المدرسة كلهم فتيات. أنت... أنت إحداهن...

عدت إلى قلمي بعيدة عن حديث المرآة، أكتب رواية عن "صراع الحضارات". كدت أنهي الفصل الأخير. استعجلت. كتبت إلى دور النشر التي أتوقّع استجابتها. انتظرت. طال انتظاري لجواب إيجابي. توصلت برسالتين من بلدين مختلفين : الأولى. أكد لي مدير النشر فيها أن الأدب النسائي لا مقام له في سوق الكتاب... الثانية. رحب فيها مدير الدار على أن أدفع له حقوق النشر والتوزيع...

طويتهما مع "صراع الحضارات" وضعتهما مع كتابات أخرى على رف مهجور. عدت إلى المدرسة مع قسمي المفضل. اندمجت في عالمي.

.. لا ... لا تهجري القلم.

وسبحت الوصية "وصية التحدي" في فكر يائس.

صممت – ودموع الألم تعصر قلبي – أن أسير وراء نعشها إلى مثواها الأخير.

– لا يا بنتي... النساء لا يصاحبن النّعش إلى القبر.

هتفت إحدى خالاتي منتحبة.

– ولكن هذا جدث أمي : هي كل ما كان لدي في هذه الحياة بعد وفاة والدي. لا أتركها للآخرين يحملونها إلى قبرها. سأعرف أين يضعون جدثها. هي أمي... أمي... أمي... وانتحبت والرجال يحملون نعشها... هي التي كانت تحذر أن تقترب من رجل.

غابت... غاب كل مورد لي في الحياة. كانت تعمل بيديها وعلى آلة الخياطة لتوفر لي الحياة. تعريت من سِتْرها... أقف بباب الوزارة أطلب العمل. كثيرات غيري عدن آسيات. أقف – مع المتظاهرين والمتظاهرات من حملة الشهادات بباب المجلس أنتظر نظرة استخفاف من بعض نواب الأمة، إذا لم يخرجوا من الباب الخلفي نحو مرآب سياراتهم الفارهة...

فكرت طويلا وإدارة المدرسة تسلمني شهادة التخرج من قسم الرقص بميزة تفوق... سأضيفها في درج مكتبي أضمها إلى شهادة كلية الآداب بميزة حسن جدا.

– لا لن تموتي فقرا وجوعا. شهادة المدرسة تتيح كل فرصة عمل.

هتف هاجس التحدي في أذني.

توقفت أمام المرآة طويلا أسأل :

– أية فرصة تحمل شهادة المدرسة إلي ؟

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ظلت المرآة صامتة كما لو كانت جزء من الجدار الميت التي تستند إليه. انصرفت عنها في غير غضب. ما كنت أنتظر منها غير ما منحتني. دخلت غرفتي الموحشة. لم أقفل بابها، فليس في المنزل غيري، بعد أن رحلت عن حياتي. فتحت مسجل الموسيقى. منحت جسمي حرية الرقص الشرقي هذه المرة. وأنا أتذكر كلمة الأستاذة :

– لك موهبة فذة في هذا الجنس من الفن.

انصرفت بكل أحاسيسي إلى أداء أجمل ما تعلمت من إيقاعات تخرج بالرقص من وصمة "الشرق" إلى مضمونه "الفني" اتجهت إلى المرآة. أذناي مع الموسيقى، كانت الأنغام حادة مثيرة سريعة الإيقاع... عيناي مع المرآة تقرآن... أي نعم تقرآن، أسطورة آسية يكتبها جسدي. قد تكون أسطورة الراحلة التي تركتني في فراغ... قدماي، أذناي مع النغم، فخذاي... ملمس العفة مني... موقع حزامي... نهداي... ردفي... كتفاي... عنقي... قافلة، باقة ... هل سمعت، رأيت باقة تكتب أسطورة أزعم أني رضيت عن نفسي.

– أداؤك متميز...

خيل لأذني أنهما سمعتا الكلمة من الأستاذة.. من مدير المدرسة، لعله يعتذر عن ملاحظته الصائبة حينما رآني أؤدي حصة الدرس لأول مرة.

جلست أمام مكتبي لآخذ نفسا. لم يجهدني الرقص، أجهدتني الأسطورة، على المكتب قلم وورق... ومانيطفون حملتهما برفق وأسى إلى زاوية منسية من درج المكتب :

– وداعا...

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

كان فكري متوترا – بعد فترة رضى – قلب فارغ وضمير مستريح. أصبحت لا أطيق الجلوس عاطلة في تبلد. قذفت بي قدماي. سرت تلقائيا دون تفكير، إلى قاعة صغيرة لم أكن أغشاها من قبل قط قبل الوحشة التي تركتها في كل قاعات المنزل الصغير يوم رحلت. لقيمات من خبز يابسة فضلت من عشائي – أي عشاء ...!؟ – اهتديت إلى علبة السكر – كانت في يوم ما عامرة – بقايا من مسحوق. غمست فيه القطع اليابسة من الخبز. كأس ماء من صنبور ما يزال يعطى. خرجت من قاعة المطبخ راضية مستريحة الضمير.

لبست الملابس التي كنت ألبسها في المدرسة. لم يكن لي أن أختار. من مدرسة إلى أخرى. هذه أكثر سعة ورحابة... أخشى أن أضيع. هاجس التحدي يرسم خطاي. يقيني متاهات الضياع... كدت أترك المفتاح خلف الباب. كانت باب المنزل مفتوحة دائما في وجهي. من يفتح لي صدره لو نسيته. تعلمت يدي أن تفتح الباب. بدأت آلف الوحشة والوحدة... أقرأ... أسمع الموسيقى قبل أن أنام، أرقص عندما أفيق وأنهض من فراش...

متاهات المدينة تفتح أمامي آفاق الضياع. أسير بخطوات وئيدة حتى لا أنزلق فيدمر ضميري...

حذرة كنت أسير... وأسير... أي هدف ؟ أي مسعى...؟ أي مقصد... ؟ لا.. لن أضل السبيل. أجهلها. نعم. خطواتي غير مضللة. شوارع. زقاقات حافلة بالسيارات. بالسائرين على غير هدى، وهم يحسبون أنهم مهتدون... أتراني إحداهن، إحداهم ؟ قد يكون. وصلت أو لم أصل؟ حتى التيه هدف، قد يوصل. وكان التيه حينما وجدتني وسط ميدان رحب السعة حافل بالحركة. تدور حوله سيارات فارهة... متهاوية، حافلات، شاحنات حاملات يجرها حمر. حتى سيارات الإسعاف بزعيقها المزعج في إنذار. طفت بالميدان المنسق في إتقان. نباتات خضراء تحيط بنخلة سامقة تتوسط المدار.

– لم النخلة، ونحن في مدينة حافلة بهدير السيارات ؟ لم النباتات الخضراء في ميدان لا يُتيح فيه هدير السيارات لأحد أن يفتح عينيه على خضرتها ؟ ما أظن أحداً غيري – إلا العاطلين الذين تسلمهم أقدامهم شبه الحافية – تلفت إلى النخلة السامقة ورأى الخضرة تحيط بسيقانها... بنت الصحراء تقبع وسط المدينة، تؤكد الوجود... وأنا ماذا أؤكد هنا، أسير دائرة، أتوقف حائرة. أنا، الأخرى، كالسامقة الغريبة أثبت وجودي... ؟

كبلهاء توقفت على بساط أُعِدُّ الطرق التي يتوزع إليها الميدان. خمسة ؟ ستة..؟ لا هي سبعة.. طرق سمعي متحدث بصوت جهوري يهتف لآخر، بعيد بعيد. قد يكون في مدينة أو قرية أو قارة:

– أنا هنا في "سبع شوانط..."

ابتعد الصوت. غاب المخاطِب غياب المخاطَب. ولكني عرفت أني في سبع "شوانط". ازداد يقيني بالمنبه. ازدادت حيرتي كل طريق من السبعة تؤدي إلى ...؟ ولكنها جميعها لا تؤدي إلى روما... قد أسلك إحداها فتصل بي إلى وزارة التعليم. وتقف المسيرة عند الباب المقفل في وجه غير المحظوظ... قد أسلك الأخرى فتصل بي إلى بوابة البرلمان، فأنضم إلى المتجمهرين يتظاهرون ويهتفون :

– نريد عملا... أو نضرب عن الطعام حتى الموت...

لا أريد أن أضرب عن الطعام إن وجدته، ولا أريد أن أموت الآن. هما سبيلان لا توصلان.

أسلك سبيل الثالثة أو الرابعة أو الخامسة، فترمي بي جميعها على أبواب شركات أو بنوك أو دكاكين تجارة.

– ما دراستك ؟ ما مهنتك ؟ أين اشتغلت قبل الآن ؟

– دراستي أدبية... وفنية (فنون جميلة)

ويتوقف الحوار بسرعة. ليس عند المخاطَب وقت يضيعه.

– آسف، الله يفتح لك شي باب.

أسلك السابعة. رقم سبعة مذكور في الأثر... وفي الأدب... والتاريخ. الأمل يملي علي.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

سلكت طريقا "السابعة" نحو ؟ نحو المجهول.

– هل وصل أحد إلا عن طريق المجهول ؟ هل كان المليونير الرحموني يعرف الهدف قبل أن يأخذ طريقه في المجهول ؟

اسم شجعني على ارتياد المجهول. أسير في حذر كسائحة تفتح عينيها على مدينة مجهولة...

أحدق بإصرار في المكتوب على أبواب العمارات والبنايات والمتاجر والسينمات وصالات العرض : ملهى النجوم الليلي... صالة عرض الفن الراقص... التسجيلات تفوق الموسيقى العالمية... مطعم ليلي راقص... اسم غريب ومضحك...

– اطرقي بابه... لا تترددي. مطعم لا ملهى... "راقص" ؟ وأنت ماذا تتقنين ؟

– لو وجدت مكتبة الأدب الحديث لطرقت بابها في إصرار...

– (التحدي يتفجر في ضحكة ساخرة) مكتبة... الأدب... الحديث... ما هي خطوتك الأخرى نحو النعيم..؟ اطرقي الباب. لا تخجلي...

فتح لي التحدي الباب، دخلت بأقدام ثابتة.

– يا آنسة لسنا في حاجة إلى نادلات ولا إلى عاملات أو سكرتيرات...

وتطلع المدير بفضول إلى وجهي. نظيف... عاطل من كل زينة. دار من حولي يقيس طولي وعرضي ووزني بعينين خبيرتين دون أن يدعوني إلى الجلوس.

– اسمعي ؟ قلت لك نحن في حاجة إلى راقصات... وأنت لست راقصة فيما يبدو.

كان ينتظر – لعله – أن أدير وجهي عنه نحو الباب. التحدي كان معي. أجبت بصوت ثابت عامر باليقين :

– ... وأنا خريجة مدرسة الفنون الجميلة – قسم الرقص...

صمت مطبق ساد بيننا إلا من العينين الفضوليتين تقتحمان وجهي، قامتي، من شعري – غير المنتظم في فوضى – حتى قدمي. كنت خجلة من حذائي، يقوم بمهمته في استسلام أبدي... اخترقت الصمت في إلحاح :

– كنت الأولى بين الخريجات.

استمع إلي في وعي. لعله لأول مرة كان يواجه خريجة مدرسة. تطامنت عيناه في فضولهما السافر.

– يا آنسة – سأعرف اسمك – المطعم دار محترمة. تقدم لروادها وصلات ترفيهية من الموسيقى والرقص (توقف قليلا قبل أن يضيف) الرقص الشرقي يا آنسة. أقول الرقص الشرقي...

ظن المدير أني سأنفر من كلمة الشرقي فأدير وجهي نحو الباب. كان التحدي معي :

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

– المدرسة علمتنا الرقص الشرقي والغربي، (أضفت ضاحكة) والأسيوي كذلك. إنها مدرسة الفنون الجميلة. مؤسسة تابعة للدولة خريجوها يتقنون الموسيقى والغناء والرسم وصناعة التماثيل والرقص بكل صوره وجمالياته...

انتظرت. لا أدري كم انتظرت... ؟ لم أكن أراقب الزمن، ولا أتطلع إلى ساعة في معصمي. الفراغ أوصى باحتقار الزمن. وكدت أضيف والمكان... أكان الفراغ يتملكني ؟ المجهول فراغ. في القاعة المترامية الممزقة الأضلاع، المملوءة بالطاولات والكراسي. هي الأخرى تنتظر. فارغة إلا من أنفاس لعلها كانت تتردد بين جنباتها. طافحة بالأمل والود والانتشاء و.. الحب... هو الآخر ينتظر ساعة الاستجابة. أنا وحدي أنتظر بلا أمل ولا ود ولا انتشاء. ولا... حب... لا أحسبني أنتظر – طويلا. إذا لم يكن الانتظار يلتهم وقتي فماذا يلتهمه ؟ أقبل علي في صيغة الشباب. بدا عليه أنه يحمل رسالة. ابتسامة خفيفة على عارضيه.

– أنا المخرج مكلف بالسهر على النشاط الفني في المطعم : الغناء والرقص والتعامل مع الفرق التي تتناوب على هذا المسرح الذي أديت عليه تجارب الاختبار. أختار الموسيقى واللحظات الفكاهية ووصلات الرقص. فأرشد الراقصات أو الراقصة إلى سلوكهن مع الزبائن. (وقف شعري وأنا أسمع منه في جدية صارمة – الكلمة الأخيرة) استمر يتحدث كأنما يلقي تعليمات ؛ أدير المسرح ليكون جذابا لزبناء أكثر، وليشعر رواد المطعم بسعادة تجعل من وقت عشائهم متعة جميلة تغريهم بالعودة.

غير من لهجته وهو يبلغ الرسالة :

– المدير أعجب برقصاتك. لعله – أقول : لعله، سيقبل التعاقد معك. أحب أن أوضح أن التعاقد هنا غير ملزم. لست مكلفا بأن أبلغك هذه الملاحظة – غير أنه يلاحظ، وربما أنا أيضا الذي كنت أراقب عملك من بعيد أن ما قدمته أكثر جدية. ينقصك التغنج، وتقديم مفاتن الجسد. الرقص المدرسي المغربي الجاد، لن يجد من روادنا كبير ترحيب. من وجهة نظري : تؤدين أجمل منه في أروع أداء. أتدرين كم من عشاق الفن الجميل يرتادون هذا المطعم ؟ لن تجيبي... لأنك لا تدرين بعد. ولعلك ستعرفين أن الانتشاء يقرن الكأس بالمرأة. صدر الراقصة وما تحت الصدر يثير ضجيجا في رؤوس المنتشين بالكأس، فيطلبون الثانية والثالثة في انتظار أن تجالسهم تلك التي قدمت لهم على المسرح أغلى ما تملك... المدير سيقابلك، بعد قليل، ليبلغك احتضان المطعم لك كراقصة تحت التجربة. (أضاف بصيغة إشفاق) لا تراعي. أعتقد أنك ستنجحين في التجربة. وستكونين راقصة المطعم الأولى. (تراجع حتى لا أعتبر كلماته التزاما) : أتحدث انطلاقا من ملاحظاتي من بعيد... ستنجحين. إذا أخذت ملاحظات المدير بعين الاهتمام. حظ سعيد... انتظري...

لم يتركني في انتظار زمني، في انتظار اللحظة التي يستدعيني فيها المدير. تركني في دوامة التفكير بالكلمات التي أسمعها لأول مرة. مثيرة... ولكنها لغة المكان الذي فتح لي التحدي أبوابه

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فدخلتها: صدر المرأة وما تحت الصدر... أجمل مفاتن الراقصة. اجتذاب الزبائن. مجالستهم ليطلبوا الكأس الثالثة... كان التحدي معي، وقد غرست كفي على الكرسي لأغادر. فكرت في العودة إلى القلم الثاوي في ركن منسي من الدرج. أنتج. أبيع إنتاجي بالآلاف، بالملايين. أصبح كاتبة مشهورة تزين كتبي واجهة المكتبات... وتصلك رسالة من الناشر – أجاب التحدي – يطالبك بحقوق النشر والتوزيع... ورسالة من الناشر الآخر : لم ينجح الكتاب فلا أغامر بالكاتبات...

عدت إلى مكاني من المقعد أنتظر المصير.

ليلتي الأولى. قدمت فيها أجمل ما كان يأخذ بإعجاب الأستاذة. كنت مضطربة. أواجه عيون جماهير لأول مرة. أحسست – أو هكذا خيل إلي بنهم في بعضها. بشبق يقطر من شفاه بعض المخمورين. ضجة من تصفيقات شباب أعادت إلي كياني المتحدي.

– تقدمين الرقص الشرقي

هتف هاتف من أعماقي. فكرت في الجسد، في الصدر، فيما تحت الصدر، في الابتسامة لا تختفي من عيني، في وجهي جميعا، في شفتي متفتحتين تنتظران ما تحفل به العيون الشبقة.

أديت رقصات شرقية فيها نغمة من الغرب، غربية فيها فيض من الشرق. رغم اضطراب كنت فيه موزعة الفكر بين عملي الجديد، وسط حشد من العيون المتطلعة والشبق الشره، وبين الأمل في النجاح، بين المدير الذي يقف خلف القاعة يراقب نجاحي أو فشلي، وبين المخرج بالجانب المتستر من المسرح يسجل أدائي بإصاباته وأخطائه، وبين الموسيقى السمجة التي أريد لها أن توجه رقص الراقصات وغناء المغنيات... كنت في دوامة لم يخرجني منها غير التحدي يناديني :

– أصبت. نجحت. استمري. لا تراعي عيونا يشعل فيها الكأس شبق العاجزين... استمعي بعمق إلى تصفيقات المعجبين. إنهم يتذوقون الفن.

توالت الليالي. أكتب على الضوء الساطع الموجه إلي – بجسدي قصة نجاحي. أفهمت ؟ المدير يأمر... ألا أجالس المخمورين من رواد المطعم.

أقنعني أن أحيي كلّ مجموعة لتلتقط لي صورة معهم في وضع راقصة مكشوفة العنق حاسرة الصدر، إلا ما يمتنع الحياء عن تعريته.

كتبت بجسدي قصصا رائعة لغتها الإيقاع. صفحاتها جسد وقف عند حدود الفن، أقنع الآخرين أن يحترموا الفن في أجمل وأروع سبحاته.

لم أمت فقرا ولا شعرت بجوع...

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com